



الاستعمار وأثره في خريطة التركيب الديني في إفريقيا (دراسة جغرافية)

د. منى علي عبد الرحمن شافعي

مدرس جغرافية السكان - كلية الدراسات الإفريقية العليا
- جامعة القاهرة

يشكل الدين محورياً رئيسياً في تفاعلات حياة المجتمعات السياسية في دول العالم المختلفة، فالدين ظاهرة اجتماعية وسياسية تؤثر في جوانب حياة المجتمعات المختلفة، وتعتبر قارة إفريقيا من أكثر قارات العالم تنوعاً، حيث توافدت عليها العديد من العناصر الخارجية على مرّ العصور، شكلت وساهمت في رسم الخريطة الحالية للتركيب الديني، والذي يصعب فهمها دون العودة إلى الجذور التاريخية.

فمع قدوم الاستعمار الأوروبي بُدلت محاولات منظمة لاجتثاث الإفريقي من جذوره وإبعاده عن تراثه تحت دعاوى متعددة، منها الحدائثة والتحضر وتجاوز التخلف. وسعت الكثير من الدول، خلال الحملات الاستعمارية، إلى إرسال بعثات تبشيرية دينية من أجل دعوة الناس إلى المسيحية، وفي سبيل ذلك قامت الدول الأوروبية بمحاولات متعددة للقضاء على الحضارة العربية الإسلامية؛ حيث كان الإسلام أكبر منازع للمسيحية في إفريقيا.

ويعتبر الصراع في إفريقيا بين المسلمين والأوروبيين (الاستعماريين)، امتداداً للصراع بينهما في الأندلس، بعد رحيل المسلمين إلى إفريقيا فراراً من حملات الاضطهاد الكبيرة التي شنتها الكنيسة الكاثوليكية ضدهم، وظهرت مع ذلك البرتغال وإسبانيا على أنقاض الأندلس، لتقودان معاً حركة الكشوف الجغرافية، التي نتج عنها احتلال عدة مناطق في آسيا وإفريقيا وأمريكا؛ والتي هدفت إلى محاربة الإسلام والسيطرة على طرق التجارة، وظل الصراع دائراً. وتعددت الدول الأوروبية المتصارعة داخل القارة الإفريقية بعد مؤتمر برلين (1884-1885م).

وعلى الرغم من رحيل المستعمر برده العسكري وتحقيق الاستقلال السياسي، فإنه لا يزال سكان إفريقيا المسلمون يواجهون الاستعمار الجديد الذي يأتي بشكل مساعدات إنسانية ومشاريع تنمية وتعليمية وصحية، واستمرار الحملات التنصيرية في الهيمنة والتأثير، فضلاً على استمرار النزيف الاقتصادي بحرمانهم من ثروات بلادهم، وضعف التعليم في جميع مستوياته.

مشكلة وتساؤلات البحث:

تكمن مشكلة البحث في أهمية التركيب الديني الذي يُعدّ أحد أهم الجوانب الإثنوغرافية التي تأثرت بالعناصر الوافدة من خارج القارة على مر العصور، والذي يُعدّ الاستعمار أهمها، حيث استغل

ما تميزت به القارة الإفريقية من شخصية فريدة ومتنوعة في الجوانب الجغرافية الطبيعية والبشرية؛ فالتعدد (العرقى، واللغوي، والمعتقدات المحلية الروحانية) ميزة استغلتها الدول الأوروبية، سواء قبل قدوم الاستعمار أو بعده، في خدمة مصالحه ونشر المسيحية للسيطرة على هوية الأفارقة. لذا فموضوع الاستعمار وأثره في التركيب الديني في إفريقيا من الموضوعات المهمة في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، حيث توافدت عناصر خارجية كان لها دورٌ كبير في تغيير خريطة التركيب الديني للشعوب الإفريقية، الأمر الذي يثير العديد من التساؤلات:

- ما هي الأوضاع الدينية داخل القارة الإفريقية قبل قدوم الاستعمار؟

- هل شكّل التنوع الإثنوغرافي تحدياً أمام انتشار الديانات الكبرى بالقارة؟

- هل المسيحية في إفريقيا دين حديث ارتبط بالاستعمار؛ أو أنه قديم قدم المسيحية نفسها؟

- هل كان للسياسيات الاستعمارية وتوسعها أثر في توزيع المسيحية وتركزها في نطاق وانحصارها في نطاقات أخرى؟

- هل كان للاستعمار أثر في تشكيل الخريطة الدينية في مرحلة حصول دول القارة على استقلالها؟

وما هي العوامل التي ساعدت على رسم الخريطة الدينية لقارة إفريقيا على مرّ العصور؟
مناهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على عدة مناهج، وهي:

المنهج التاريخي: الذي وضح أثر الاستعمار في التركيب الديني لقارة إفريقيا وانتشار الديانات الكبرى والتطور العددي لها. والمنهج الإقليمي: الذي يهتم بالتوزيع والتباين الجغرافي للديانات داخل القارة. والمنهج التحليلي: الذي يهتم بتحليل الوزن النسبي لكل ديانة من جملة السكان.

كما تعتمد الدراسة على العديد من أساليب البحث، حيث تتبع الأسلوب الكارتوجرافي في

التوافق بين الأديان في إطار العادات والتقاليد^(٢). وقد ساعد التنوع الإثنوغرافي في إفريقيا جنوب الصحراء على وجود مظهر مهم من مظاهر الاعتقاد بصورة جلية، أي مظهر افتراضي يقوم على عبادة المظاهر الطبيعية والروحية التي تستمد قوتها من الأساطير والطقوس المحلية^(٣).

عاشت الشعوب الإفريقية فترات طويلة تمارس الطقوس والمعتقدات دون منازع، وكانت الشعائر والعبادات ما هي إلا وسائل تهدف إلى غاية واحدة؛ هي تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة الحيوية وضمان بقائها وكيونتها لأبعد مدى، وارتباط السعادة والتعاسة بتلك القوة؛ ففي فقدانها التعاسة؛ فالإعياء والفشل في العمل هما أعراض تدل على نقص هذه القوة.

الديانات الإفريقية التقليدية بطبيعتها متعددة ومتنوعة، وعادةً ما تكون مستتيرة بالهوية العرقية للفرد، على سبيل المثال: ركزت ديانة اليوروبا تاريخياً في جنوب غرب نيجيريا، وديانة الزولو في جنوب إفريقيا، وديانة الأيبو في جنوب شرق نيجيريا، كما تعددت وتنوعت الطقوس لدى الأديان التقليدية، نذكر منها على سبيل المثال: طقوس الزواج، الحمل والولادة، والموت والجنائز^(٤).

تغيرت التركيبة الدينية للقارة الإفريقية بحلول القرن الأول الميلادي، بدخول العناصر الخارجية التي توافدت عليها من الشمال (المسيحية) منذ نهاية القرن الأول الميلادي^(٥)، ومن شرق وشمال القارة مع

رسم وإعداد الخرائط، وكذلك الأسلوب الإحصائي من خلال الاعتماد على البرامج الإحصائية لعمل الجداول والأشكال البيانية داخل محتوى البحث.

خطة البحث:

تتمثل خطة البحث في عدة محاور:

أولاً: الحالة الدينية في إفريقيا قبل الاستعمار.
ثانياً: السياسات الاستعمارية وأثرها في الحالة الدينية في إفريقيا.
ثالثاً: أثر السياسات الاستعمارية (من القرن ١٩ حتى الآن).
رابعاً: العوامل الجغرافية المؤثرة في التركيب الديني.

أولاً: الحالة الدينية في إفريقيا قبل الاستعمار:

ضمت القارة الإفريقية في مرحلة ما قبل الاستعمار نوعين من الأديان؛ هما: الأديان التقليدية المحلية الإفريقية؛ والأديان الوافدة التي تضم مجموعة دينية كبيرة (المسيحية، والإسلام)، حيث تميزت الشعوب الإفريقية منذ القدم بتدينها، وربما يرجع ذلك لطبيعتها القبليّة التي تُعدّ القاسم المشترك بين الديانات التقليدية الإفريقية والديانات الوافدة، كما أنها من أهمّ مكونات الشعوب في مرحلة ما قبل الاستعمار^(١).

١) الأديان التقليدية المحلية الإفريقية:

يُعدّ مصطلح «الأديان التقليدية» مصطلحاً شاملاً، يُستخدم لجميع الأديان العرقية والموروثات الدينية الشعبية التي يمارسها الشعب الإفريقي، ولاسيما في إفريقيا جنوب الصحراء، ويُقصد بذلك

(٢) إسماعيل صديق وآخرون، البنية الفكرية لأديان إفريقيا التقليدية، معهد مبارك قسم الله للبحوث، الخرطوم، ط ١٧، ٢٠١٧م، ص٩.

(٣) Bjorn Moller, op.cit, p.11

(٤) Jacob Olupona, The spirituality of Africa, Harvard, at: <https://news.harvard.edu/gazette/story/2015/10/the-spirituality-of-africa>

(٥) عطا الله عبد الرحمن، انتشار الديانة المسيحية في

Bjorn Moller, Religion And Conflict In Africa (١) With A Special Focus On East Africa, Danish Institute For International Studies, 2006, p.10

- المرحلة الأولى: خلال العصور القديمة:

انتشرت المسيحية في شمال إفريقيا الرومانية منذ بداية القرن الأول الميلادي، وخلال هذه الفترة ازدهرت الكنائس في شمال إفريقيا لمدة ستة قرون قبل دخول الإسلام لقارة إفريقيا، كما كانت الكنيسة في شمال إفريقيا عموداً للكنيسة العالمية، وكانت الإسكندرية أول مركز حضري للمسيحية في قاره إفريقيا. ويمكن القول بأن الـ١٥ قرناً الأولى من عمر المسيحية في إفريقيا كانت متركزة في شمال إفريقيا والقرن الإفريقي، حيث كانت الإسكندرية في مصر وقرطاج في المغرب والحبشة في إثيوبيا مركزاً رئيسياً للمسيحية في إفريقيا، إلى أن دخل الإسلام القارة عندما بدأت الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا عام ٦٦٤م، الأمر الذي أثار تدرجياً في المسيحية وتضاءل عدد الأسقفيات إلى أن اختفت تماماً بحلول القرن الثالث عشر.

المرحلة الثانية: الفترة البرتغالية والإسبانية: امتدت

من بداية القرن ١٥ حتى القرن ١٨:

كانت إسبانيا والبرتغال من أوائل الدول الأوروبية التي قامت بالاستكشافات الجغرافية، ساعدها في ذلك الموقع البحري الذي تمتعت به، والتعصب الديني الذي تميز به ملوك هذين البلدين في محاولة نشر المسيحية إلى مناطق جديدة^(٤)، إلا أن الإسبان تأخروا عن البرتغاليين في هذا المجال لأسباب، منها: تأخر وحدتها السياسية وانشغالها بالحروب في القارة الأوروبية والتي استنزفت الكثير من مواردها المادية والبشرية، إلا أن ذلك لم يمنع أن يكون لإسبانيا دورٌ بارز في حركة الاستكشافات الجغرافية^(٥).

فبين المسيحية القديمة والحديثة يمكن تتبع حركة مسيحية أخرى كانت رائدة في التبشير في

الفتوحات الإسلامية لشمال إفريقيا، وحركات التجارة في شرقها، بعد فترات من المقاومة، ولكن سرعان ما تحول عدد كبير من الأفارقة للديانات السماوية (المسيحية، والإسلام).

وقد ساعدت العديد من العوامل في سهولة تحول السكان من الوثنية والمعتقدات المحلية التقليدية إلى الديانات الجديدة؛ ولعل أحد أهم هذه العوامل هو أن المعتقدات الروحية الإفريقية التقليدية ليست ملزمة بنص مكتوب، مثل اليهودية والمسيحية والإسلام، فالديانات الإفريقية التقليدية هي في المقام الأول تقليد شفهي ولم يتم تدوينها بالكامل أبداً، وبالتالي فإنه يسمح لنفسه بسهولة التعديل والتأثر بالأفكار الدينية الأخرى. فالتمسك بعقيدة موحدة أو الحفاظ عليها ليس من جوهر الديانات الإفريقية التقليدية، ومن هنا كان الطريق مهيئاً لاستقبال الديانات الوافدة إلى القارة (المسيحية، والإسلام)^(١).

(٢) المسيحية في إفريقيا:

سبقت المسيحية الاستعمار في دخول القارة الإفريقية، فكانت البدايات الأولى للمسيحية في شمال إفريقيا في نهاية القرن الأول الميلادي، حيث أسست أول كنيسة في شمال إفريقيا في قرطاج، ثم توالى زيادة عدد الكنائس والأساقفة، مما يثبت زيادة انتشار المسيحية في شمال إفريقيا في تونس والجزائر^(٢). ويمكن تتبع دخول المسيحية إلى القارة الإفريقية عبر ثلاث مراحل كما يلي^(٣):

إفريقيا خلال الاحتلال الروماني وموقف السلطة الرومانية منها، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية العدد الحادي عشر، ص (١٤٠-١٤٦)، جامعة تبسة الجزائر، ٢٠١٠.

(١) Bjorn Moller, op cit, p.12

(٢) عطا الله عبد الرحمن، مرجع سبق ذكره، ص ١٤١.

(٣) Rev. Joseph Mpala Ngulu Is Christianity In Africa A Fruit Of Colonialism?, Human Dignity Journal, Number 2- 2015-2016, DOI: <http://dx.doi.org/10.18290/rt.2016.63.10-12>

(٤) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، ط٥، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٢.

(٥) جعفر عباس حميدي، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠، ص ٧٥.

١٨٨٤م حتى أصدر قراراته في فبراير ١٨٨٥م.

ب- البعثات العلمية:

والتي هدفت إلى التعرف على الجانب الأنثروبولوجي عن الشعوب والجماعات الإفريقية، فدرست لغتها وعاداتها الاجتماعية وطقوسها الدينية ودياناتها ونظامها في الحكم، حيث كانت تقوم بهذا الدور لخدمة الأنظمة الاستعمارية وليس لأغراض علمية خالصة.

ج- حملات التبشير:

دخل المبشرون إلى إفريقيا منذ القرن ١٥ أثناء الاكتشافات البرتغالية، وبعد ذلك بفترة أخذت ترد إليها البعثات التبشيرية البروتستانتية الإنجليزية والألمانية، أما غرب إفريقيا فلم تهتم بها الكنيسة البروتستانتية إلا منذ ١٨٠٤م وهي تحارب الإسلام في منطقة النيجر الغربية- على حد تعبير «شاتليه»^(٢).

وقد جابت أنحاء القارة وأقامت بين أهلها واحتكت بها احتكاكاً مباشراً، وبنيت المدارس والكنائس والمستشفيات، وقامت بدورين مزدوجين: أحدهما ديني وهو التبشير بالمسيحية بين الشعوب الإفريقية، والثاني استعماري وهو تمهيد الطريق للاستعمار، وتهيئة المناخ لاستقباله وقبوله، وذلك من خلال التعامل والاحتكاك^(٣).

المرحلة الثالثة: المسيحية في القرن التاسع عشر، امتدت من (١٨٨٠-١٩٦٠م):

شهدت تلك الفترة إنشاء الكثير من الكنائس، حيث جلبت فترة الاستعمار الكثير من أشكال النهضة الحديثة في نظم الإنتاج والحياة الاقتصادية

(٢) أ.ل. شاتليه، الفارة على العالم الإسلامي، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، ط٢، جدة، المملكة العربية السعودية، ١٩٤٩م، ص٢٥.

(٣) د. عمر عبد الفتاح، تداعيات الثقافات الأوروبية الوافدة على المشهد اللغوي في إفريقيا، أعمال المؤتمر الدولي الثاني (اللغة والثقافة في إفريقيا) القاهرة ١٢-١٤ فبراير ٢٠٠٨م، معهد البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٧٧.

إفريقيا جنوب الصحراء، والتي نشطت تحت رعاية البرتغاليين. وخلال تلك المرحلة كان المبشرون يدينون بالولاء للبرتغاليين ويرتبطون بمصالح وطنية سياسية أكثر منها دينية. وتوافدت البعثات البرتغالية، وامتدت من الساحل الغربي لإفريقيا في غينيا والرأس الأخضر وبنين وساو تومي وبرنسيب مروراً بالكونغو، ووصلت لبعض الجهات في شرق القارة الإفريقية^(١).

هذا، وقد سلكت الدول الأوروبية ثلاث طرق للسيطرة على الثقافة والدين واللغة داخل القارة الإفريقية خلال تلك الفترة، وهي: (حركة الكشوف الجغرافية، البعثات العلمية، حملات التبشير بالمسيحية)، كان لهذه الطرق الثلاثة تأثير بالغ الأهمية في الجوانب الثقافية والدينية بوجه عام، وهي كالتالي:

أ- حركة الكشوف الجغرافية:

وما تبعها من إقامة مناطق ونقاط تركز للدول الأوروبية على السواحل الإفريقية، الأمر الذي مثل بداية الاحتكاك المباشر بين الأوروبيين والأفارقة، ويرجع للبرتغاليين الفضل في كشف السواحل الإفريقية المطلة على المحيطين الأطلنطي والهندي، والتي أقامت سياستها بالنسبة لمستعمراتها ومراكزها في إفريقيا على أساس الاستغلال الكامل لمصلحة البرتغال.

بعدها اتجه الاستكشاف نحو الداخل، ويمثل الاتجاه نحو الكشف داخل إفريقيا مرحلة مهمة في استعمار القارة الإفريقية، وقد استفاد المستكشفون الأوروبيون من التقدم العلمي والطبي الأوروبي في إتمام عملية الكشف التي استغرقت حوالي قرن من الزمان، من عام ١٧٧٠م إلى عام ١٨٧٥م، حيث تم في هذا العام الأخير كشف جميع أحواض أنهار إفريقيا، ومن ثم تمهيد الطريق أمام الدول الأوروبية لاستعمار القارة، وزادت المنافسة بين القوى الأوروبية إلى أن أُعلن عن مؤتمر برلين، الذي انعقد بدءاً من نوفمبر

وجود محاور رئيسية لانتشار الإسلام من مركزه بشبه الجزيرة العربية نحو إفريقيا، الأول: نحو مصر براً، ومنه إلى شمال القارة وغربها، وتوجه ذلك القسم نحو أوروبا عبر مضيق جبل طارق. والثاني: تجاه الشرق الإفريقي من خلال التجارة بحراً، وتوجه ذلك المحور إلى وسط القارة الإفريقية وجنوبها، وكان ينخفض تأثيره في انتشار الإسلام كلما زاد التمدد الجغرافي^(٢).

ثانياً: السياسات الاستعمارية وأثرها في الحالة الدينية في إفريقيا:

الغزو الأوروبي لإفريقيا ظل متصللاً من عام ١٤١٥م، وهو عام الاحتلال البرتغالي لمدينة سبته المغربية، وحتى مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولكنه لم يكن يشمل سوى المناطق الشمالية، وبعض المناطق الغربية من القارة. ويُعتبر الربع الأخير من هذا القرن هو فترة تكالب القوى الأوروبية الفعلية لاستباحة المناطق الداخلية من القارة بالقوة العسكرية، للهيمنة عليها ونشر المسيحية بين شعوبها، ولتطبيق انتشار الإسلام بين الجماعات الوثنية في الغابات الاستوائية^(٣).

وقد بدأ ذلك التكالب بعد أن كانت تجارة الرقيق، على مدى أكثر من ٤ قرون، قد أدت إلى تفرغ أجزاء واسعة من القارة من سكانها، وفي الوقت نفسه كانت قد أدت الغرض منها بالنسبة لمعظم الدول الرأسمالية الأوروبية، ومن ثمَّ ظهور الحاجة إلى تنظيم الاستغلال المحلي للأراضي، والعمل وفقاً للاحتياجات الأوروبية الجديدة بعد الثورة الصناعية،

(٢) Joseph Kipro, 2019, African Countries With Islam As The Religion Of The Majority, June 20 2019 in Society <https://www.worldatlas.com/articles/african-countries-with-islam-as-the-religion-of-the-majority.html>, p.89

(٣) أحمد بن صالح الظرافي، مؤتمر برلين ١٨٨٤م يوم اعتبر الأوروبيون إفريقيا أرضاً مستباحة، ١٩/٦/٢٠٢٠، على الرابط: <https://www.ajnet.me/blogs>

والاجتماعية والثقافية بوجه عام. وتعدُّ هذه الفترة هي فترة الانفجار والتحوُّلات الهائلة من الديانات التقليدية للمسيحية^(١)، مع وجود تباين واضح في توزيع المسيحية خلال تلك الفترة حسب السياسات الاستعمارية التي اتبعتها كل دولة داخل القارة، وهو ما سيتم توضيحه في السطور القادمة.

من العرض السابق؛ يمكن القول بأن المسيحية في إفريقيا قديمة قدم المسيحية نفسها، وأنها سبقت الاستعمار بقرون عديدة.

٣) الإسلام في إفريقيا:

كانت إفريقيا جنوب الصحراء مثلاً لانتشار الإسلام وامتداده عبر العصور، وتميز شرق إفريقيا بالسبق إلى الإسلام بحكم موقعه الجغرافي، وبخاصة الحبشة التي خلدت تاريخ الهجرة من أجل الدين في أرضها مع اسم الملك العادل «النجاشي»، ثم جاء الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص عام ٦٢٢م، وباقي أجزاء القارة الشمالية، فضلاً عن طرق التجارة البرية والبحرية التي طوقت إفريقيا الشمالية ومنها إلى إفريقيا، وقد انتشر الإسلام عبر عدة محاور كما هو مبين بالشكل (١).

الشكل (١): محاور انتشار الإسلام في قارة إفريقيا من مركزه في شبه الجزيرة العربية:



يتبين من الشكل (١):

٢) تنوع السياسات الاستعمارية داخل القارة:

اختلفت نظم الإدارة الاستعمارية في إفريقيا بشكل واضح، لكنها اشتركت جميعها في نشر المسيحية، منقسمةً حسب المنهج الذي تتبعه والسياسة الاستعمارية في إفريقيا، ويمكن تقسيمها إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى اللاتينية، واتبعت المذهب

الكاثوليكي:

وتضم (فرنسا وإيطاليا والبرتغال وإسبانيا)، تميزت كل من فرنسا والبرتغال وإسبانيا (اللاتينية) بالمركزية الشديدة التي انعكست في النظم الإدارية بما سُمي بـ«الحكم المباشر»، وفي السياسات الثقافية والتعليمية والدينية واللغوية بما سمي بـ«سياسات الاستيعاب» أو «الاستعمار الثقافي»، لذلك استخدمت اللغة الفرنسية والبرتغالية والإسبانية كلغات للتعليم والتدريس للطلاب، كما سعت إلى استيعاب الأفارقة في مستعمراتها دينياً لضمان مواليتهم للمستعمرين ووأد مقاومتهم سلمياً، وذلك بنشر دين المستعمر، ولتحقيق ذلك الهدف المرسوم وضعت هذه الدول سياسات دينية، تمثلت في شد الخناق على الإسلام والتوسع في الأنشطة المسيحية.

- المجموعة الثانية الجرمانية، واتبعت المذهب

البروتستانت:

وهي: (بريطانيا وألمانيا وهولندا)، وتضم المستعمرات البريطانية والألمانية (الجرمانية)، وكانت تتبع سياسة أخرى عُرفت باسم «سياسة الحكم غير المباشر»، وكانت أقل مركزية من نظيراتها اللاتينية^(٢).

شهدت الساحة الإفريقية تسابقاً شديداً بين معتقي المذهبين، وقد كان هذا التسابق الشديد بين المذاهب المسيحية، خاصةً في بدء الدعوة

التي كانت تتطلب الحصول على المواد الخام وعمالة رخيصة وسوق لتصريف المنتجات الصناعية، وزيادة معدلات التحضر في أوروبا، التي أدت إلى انخفاض الإنتاج في المناطق الريفية وبالتالي زيادة الطلب على الغذاء؛ لذا اجتمعت الدول الأوروبية في برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥م لتحديد مصير الدول الأوروبية ومناطق نفوذها في إفريقيا^(١).

١) الدافع الديني للاستعمار:

استخدمت القوى الأوروبية العديد من الذرائع لتسويق استباحتها للأقاليم الإفريقية، ونهب ثرواتها، وقهر واستعباد وإبادة الكثير من شعوبها، مثل: مكافحة تجارة الرقيق، وتعمير القارة الإفريقية، ونشر الحضارة فيها، وحفظ الأجناس البدائية في أنحائها، ورعاية مصالحهم، والعمل على تنصيرهم وترقيتهم مادياً ومعنوياً، وكلها مسوغات زائفة؛ فلم يعرف الناس لهذا الاحتلال سوى الخراب والدمار.

ومن الأدلة على ذلك أن جميع الدول الاستعمارية رفعت شعار الأبوية السياسية، أي أنها جاءت إلى إفريقيا بزعم تحقيق مهمة عالمية حضارية، وهي نشر المسيحية بين الأفارقة، ويبدو أن البعثات التبشيرية أسهمت بشكل بارز في تعضيد هذا الاعتقاد، فقد نشرت إحدى البعثات التبشيرية بياناً حماسياً لأعضائها في إحدى صحف غانا، جاء فيه: «إلى الأمام يا جنود المسيح، حيث بلاد الكفر والوثنية، كتب الصلوات في جيوبكم ما هي إلا بنادق في أيديكم، خذوا البشرية السعيدة حيث أماكن التجارة، انشروا الإنجيل مع البندقية»^(٢).

(١) Ahamad Faosiy Ogunbado, Impacts of Colonialism on Religions: An Experience of South-western Nigeria, IOSR Journal Of Humanities And Social Science (JHSS). ISSN: 2279-0837, ISBN: 2279-0845. Volume 5, Issue 6 (Nov. - Dec. 2012), pp.51-57. www.iosrjournals.org

(٢) أ.د. حمدي حمدي عبد الرحمن حسن، سياسات التنازع الدولي في إفريقيا، ٢٠١٢م، مجلة قراءات إفريقية، qiraataafrican.com

(٢) د. عمر عبد الفتاح، تداعيات الثقافات الأوروبية الوافدة على المشهد اللغوي في إفريقيا، مرجع سابق، ص ١٧٧.

التوسع وعمل البعثات التبشيرية ونجاحها في الأقاليم الإفريقية كافةً.

ثالثاً: أثر السياسات الاستعمارية (من القرن ١٩ حتى الآن):

سلك الاستعمار الأوروبي للقارة الإفريقية، في سبيل نشر المسيحية، ثلاثة محاور منذ دخوله القارة حتى الآن:

- المحور الأول: التفرغ العقدي:

وشمل على وجه الخصوص المسلمين، حيث ركزت قوافل المُبشِّرين في زعزعة العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين، ليصبح الإسلام مجرد شعارات وطقوس كهنوتية صماء، لينبزل عن الحياة انعزالاً تاماً.

- المحور الثاني: تنصير الوثنيين وتحويلهم للدين

المسيحي:

وذلك عبر الإرساليات التي تعمل على نشر تعاليم المسيحية عن طريق الوعظ أو مدّ العون ومواجهة الفقر والمرض، أو عن طريق التعليم بالمدارس والإرساليات الكنسية، ليتّم فيما بعدُ تعميدهم وإعطاؤهم أسماءً مسيحية بدل أسمائهم المحلية، وتكوينهم تكويناً عالياً في الجامعات الغربية ليشكّلوا النخبة السياسية الحاكمة في بلدانهم.

- المحور الثالث: التغريب:

وهو الدعوة إلى تبني أنماط الحياة الغربية المسيحية في كل شيء، ويظهر ذلك بوضوح في جنوب القارة^(٢).

وهكذا: فقد تركت الأحداث التاريخية التي عاشتها القارة الإفريقية بصمتها على خريطة التركيب الديني لإفريقيا الحالية، حيث شهدت تنوعاً وتعدداً وتبايناً في توزيع الأديان والمعتقدات، وتطوراً

إلى المسيحية، عاملاً من عوامل انقسام المجتمع الإفريقي، كما كان له أثر في تحويل الوثنيين الأفارقة إلى المسيحية؛ ففي بداية الأمر لم يكن انتشار المسيحية أمراً سهلاً، فقد ظهر في نطاقات محدودة من القارة، إلى أن استهدف المبشرون بعض زعماء القبائل الإفريقية وضمهم لصفوف المبشرين المحليين؛ بهدف الانتعاع بمعونة هذه البعث التبشيرية في إمداد شعوبهم وحماية قبائلهم ضد البيض الآخرين. ويمثل القرن ٢٠ نقلة كبيرة في انتشار المسيحية في إفريقيا، للعديد من الأسباب، أهمها^(١):

- إنشاء العديد من الكنائس خلال الفترة الاستعمارية (١٨٨٠/١٩٦٠م).

- الاحتكاك بالمدينة الأوروبية.

- زيادة حركة ترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية الإفريقية، ومعرفة الأعياد المقدسة لدى الشعوب الإفريقية.

- قيام المبشرين بالاستعانة بقساوسة من الأفارقة في تأدية مهمتهم حتى يسهل نشر الدين المسيحي بين الأفارقة، وحتى يشعر الأفارقة بأن الكنيسة ليست احتكاراً على الجنس الأبيض.

- انتشار العديد من المدارس والوسائل الاقتصادية الحديثة، مما تسبب في تفكك مظاهر الحياة القديمة لدى الأفارقة، وتغير أسلوب التفكير القبلي العتيق، مما دعاهم إلى الاندفاع لاعتناق المسيحية.

- إلغاء القرايين (التضحية البشرية) كأحد الطقوس الدينية لإرضاء الآلهة.

كانت كل هذه العوامل وغيرها قد ساعدت على

(١) Mr. Atim Jacob Kwaghga, The Impact Of Colonialism On Traditional Religion, Njiko: A Multi-Disciplinary Journal Of Humanities, Law, Education And Social Sciences, Vol.1 (1) Abuja-Nigeria, 2023

(٢) عبد الرزاق عبد المجيد أرو، التنصير في إفريقيا، رابطة العالم الإسلامي، الإدارة العامة للثقافة والنشر، سلسلة دعوة الحق - كتاب شهري محكم - السنة الثالثة والعشرون، العدد ٢٢٧، ص (٩١-٩٢).

عديداً لمعتقي المسيحية على مستوى الأقاليم والدول الإفريقية، وهو الأمر الذي يجعل تحليل الظاهرة الدينية في إفريقيا يثير أكثر من متغير واحد، فالديانات السماوية (الإسلام والمسيحية) لها وجود في إفريقيا بشكل كبير.

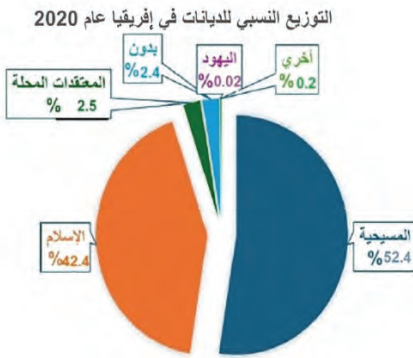
فالدين الإسلامي انتشر فيها منذ الهجرة الأولى في بلاد الحبشة وشرق إفريقيا، وذلك للقرب الجغرافي من الجزيرة العربية، بالإضافة إلى دور التجارة والهجرات العربية؛ وهو ما سهل نشر الإسلام دون عوائق، وأدى إلى قيام ممالك إسلامية في مختلف البقاع الإفريقية، وبخاصة في الشرق ووسط وغرب إفريقيا.

أما المسيحية؛ فتمتد عملياً الاسترقاق والتبشير، اللتان سبقتا دخول الاستعمار لإفريقيا، الدعامتين الرئيسيتين اللتين عَضدتا الوجود المسيحي في إفريقيا، وللتين اتخذهما المستعمر وسيلة من أدواته للتغيير الاجتماعي للشعوب الإفريقية؛ واستطاع أن يحوّل بعض القبائل الإفريقية من الوثنية إلى المسيحية عبر المدارس التنصيرية، ويُعدّ جنوب السودان مثلاً لذلك.

وبعد حصول الدول الإفريقية على استقلالها، منذ عام ١٩٦٠م، واجهت المسيحية إشكالية ارتباطها بالاستعمار في الوعي الإفريقي، وقد استمرت هذه الإشكالية خاصة مع ظهور أشكال الاستعمار الجديد، والتي تهدف إلى الهيمنة الثقافية والاقتصادية. لذا؛ قامت المؤسسات الدينية المسيحية بمحاولة اندماج جديدة في المجتمعات الإفريقية.

حيث قامت الفاتيكان بوضع برامج تدريبية جديدة بهدف تطوير رجال الدين الأفارقة الكاثوليك لخلق كاثوليكية إفريقية قوية يقودها رجال دين أفارقة، وأرسلوا رجال الدين الأفارقة في مختلف أنحاء العالم في إشارة واضحة عن ثقة الفاتيكان فيهم وتكافؤهم مع رجال الدين الكاثوليك في العالم. بينما قامت الكنائس البروتستانتية بتطوير

الشكل (٢): التوزيع النسبي للديانات الإفريقية^(٢)؛



وبدراسة التوزيع العددي والنسبي للديانات الإفريقية

كما يوضحه الشكل (٢)؛ يتضح ما يأتي:

- تحتل المسيحية المرتبة الأولى في قارة إفريقيا، حيث يبلغ عدد سكان إفريقيا الذين يدينون بالمسيحية ٦٢٤ مليون و٣٢٠ ألف، بنسبة ٥٢,٥٪ عام ٢٠٢٠م.

- بينما جاء الدين الإسلامي في المرتبة الثانية في قارة إفريقيا، حيث يبلغ عدد سكان إفريقيا الذين

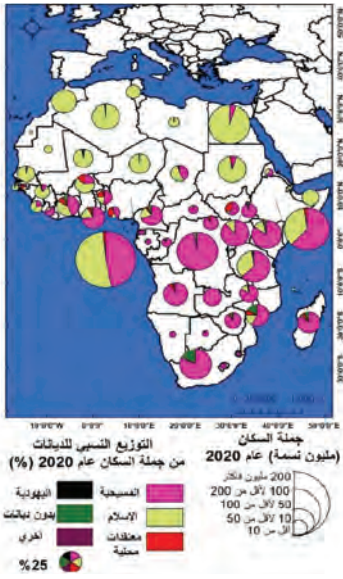
(١) عبير شوقي زكي، العلاقة بين الدين والسياسة في إفريقيا دراسة لبعض حركات الإسلام السياسي والأصولية المسيحية، تقديم إبراهيم نصر الدين، الطبعة الأولى، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، ٢٠١٥م.

(٢) تظهر بعض الدراسات الغربية تحيزاً وعدم دقة في تقدير نسب أتباع الأديان في القارة الإفريقية، لا سيما المسلمين والمسيحيين. يرجع ذلك إلى اعتمادها على منهجيات غير شاملة، مما يجعلها تعكس أرقاماً قد لا تعبر عن الواقع، حيث تخفي التوجهات السياسية والاجتماعية بعض الحقائق، مما يؤدي إلى تفاوت في النتائج. لذا، ينبغي تناول هذه النسب بحذر ووعي أكبر للسلياق - مجلة قراءات إفريقية.

(تشاد، توجو، ساحل العاج، نيجيريا، بنين).
بينما تقل النسبة عن ثلث حجم السكان في أربع دول، هي: (غينيا بيساو، سيراليون، بوركينا فاسو، موريشيوس)، كما تقل عن ١٥٪ في ١٦ دولة، هي: (مابوتي، جزر القمر، النيجر، الجزائر، تونس، الصومال، المغرب، موريتانيا، غينيا، السودان، مصر، غامبيا، السنغال، ليبيا، مالي، جيبوتي).
ومن هذا التوزيع؛ يمكن القول إن المسيحية انتشرت في إفريقيا جنوب الصحراء بشكل يفوق انتشار الإسلام؛ ويرجع ذلك للجهود الكبيرة التي بذلتها القوى الاستعمارية الكبرى على مستوى هذه الدول.

الشكل (٣): التوزيع النسبي للديانات (%) على مستوى الدول

الإفريقية من جملة السكان عام ٢٠٢٠م:



المصدر: من عمل الباحثة اعتماداً على بيانات مركز بيو للدراسات والأبحاث التابع للولايات المتحدة الأمريكية.
<https://www.pewresearch.org/religion/feature/religious-composition-by-country-2010-2050>

(٢) الإسلام:

أما التوزيع الجغرافي للإسلام؛ فنجده يتمتع بوجود مهيمن في القرن الإفريقي، ومعظم غرب إفريقيا، وشمال إفريقيا، وفي المقابل يقل في دول

يدينون بالدين الإسلامي ٥٠٤ مليون ٢٤٠ ألف، بنسبة ٤٢,٤٪ عام ٢٠٢٠م.

- يليه أصحاب الديانات والمعتقدات المحلية في المرتبة الثالثة، حيث يبلغ عدد سكان إفريقيا الذين يدينون بالمعتقدات المحلية ٣٠ مليون ٩٧٠ ألف، بنسبة ٢,٥٪ عام ٢٠٢٠م.

- في حين تأتي نسبة السكان بدون أي ديانة في المرتبة الرابعة، حيث يبلغ عدد سكان إفريقيا بدون ديانة ٢٨ مليون ٥٢٠ ألف، بنسبة ٢,٤٪، بينما تصل نسبة الديانات الأخرى ٢ مليون ١٦٠ ألف بنسبة ٠,٢٪. أما اليهودية فتأتي في المرتبة الأخيرة، حيث يبلغ عدد السكان اليهود ٧٠ ألف نسمة، بنسبة ٠,٠٢٪. هذا، ويوجد تباين واضح على مستوى الأقاليم والدول الإفريقية في التوزيع النسبي داخل كل ديانة، يتضح فيما يلي:

(١) المسيحية:

من دراسة الشكل (٣)؛ يتضح أن التوزيع النسبي للديانات على مستوى دول القارة يشهد تبايناً واضحاً، حيث تتمتع بوجود مهيمن في دول إفريقيا جنوب الصحراء، فتزيد نسبة المسيحية عن ٩٥٪ من سكان الدولة، في خمس دول، وهي: (جمهورية الكونغو (الكونغو برازافيل)، سانت هيلانه، ليسوتو، زامبيا، ناميبيا).

وفي عشرين دولة أخرى تتراوح نسبة المسيحيين بها بين (٧٥-٩٥٪)، وهي: (الجابون، بوتسوانا، جنوب إفريقيا، ساوتومي وبرنسيب، مالاوي، كينيا، مدغشقر، أوغندا، ليبيريا، زيمبابوي، جمهورية الكونغو الديمقراطية (الكونغو كينشاسا)، رينون، سوازيلاند، غينيا الاستوائية، جنوب السودان، الرأس الأخضر، أنجولا، بروندي، رواندا، سيشل). وفي سبع دول أخرى تتراوح نسبة المسيحيين بها بين (٥٥-٧٥٪)، وتشمل: (موزمبيق، جنوب السودان، إثيوبيا، إريتريا، تنزانيا، الكاميرون، غانا).

وتتراوح بين (٣٥-٥٥٪) في خمس دول، وهي:

تتكرر ثنائية الشمال الإسلامي والجنوب الوثني المسيحي. وهكذا تأتي بقية دول القارة الإفريقية، كل له مزاياه وتوزيعه الجغرافي الديني، ويستمر انتشار المسلمين ليصل إلى جنوب إفريقيا، حيث توجد أقلية مسلمة لا يستهان بها، وهي من أصول آسيوية.

- وبذلك؛ نجد أن نسبة المسلمين تزداد في الدول التي تقع على مقربة من الحدود الإسلامية في شمال وشرق القارة.

- كما يتفق التوزيع النسبي للإسلام بالقرب من المحاور الأساسية لدخوله إلى القارة الإفريقية فمن دراسة الشكل (٤) حيث تزداد نسب المسلمين بالقرب من المحاور البرية التي تمتد بشكل ساحلي شمالي، متفرعة منها محاور صحراوية تمتد إلى غرب إفريقيا، كما تزداد نسب المسلمين بالقرب من المحاور البحرية في شرق إفريقيا كما هو الحال في: (الصومال، جيبوتي، السودان الشمالي، كينيا، وتنزانيا).

٣) الديانات والمعتقدات الإفريقية المحلية:

يتوزع أتباع المعتقدات المحلية الإفريقية على بعض دول القارة الإفريقية كما هو الحال في: (بوتسوانا، وسوازيلاند، وجمهورية جنوب إفريقيا، وسيراليون، وساحل العاج، وغانا، وزيمبابوي)، ويلاحظ تراجع أعداد ونسب المنتسبين لهذه الديانات لصالح المسيحية والإسلام، حيث التحولات الدينية الكبيرة التي يشهدها سكان القارة.

٤) اليهودية:

يتضح لنا أن الديانة اليهودية تأتي في المرتبة الأخيرة، حيث تقل نسبة السكان الذين يدينون بها عن ١,٠٪ من جملة السكان في كل الدول الإفريقية. يتوقع حدوث تغييرات مستقبلية في خريطة توزيع الأديان في إفريقيا؛ فمن المتوقع أن تتراجع الأديان التقليدية مقابل الأديان السماوية؛ نتيجة للحداثة والتعليم والعولمة، والدور الريادي الذي تقوم به الكنيسة والأزهر الشريف؛ لذا يظل التنافس بين

إفريقيا جنوب الصحراء، حيث يوجد على شكل أقليات إسلامية بأعداد متناثرة.

وبالنظر لخريطة التوزيع النسبي للمسلمين من جملة السكان؛ نجد أنها تأخذ شكلاً دائرياً كما لو كان الإسلام يحتضنها ويحتويها، تبدأ أولى حلقات هذه الدائرة لتصل الشمال العربي الإسلامي بالغرب الإفريقي (الشكل ٤)، متضمنةً (السودان، ومصر، وليبيا، وتونس، والمغرب، والجزائر)، بعد ذلك تتحدر جنوباً صوب غرب القارة الإفريقية لتشمل دولاً ذات أغلبية مسلمة كما هو الحال في: (موريتانيا، النيجر، ومالي)، ثم تمتد خطوط هذه الدائرة من ناحية الشرق. وهناك دول نصف إسلامية، وتشمل خمس دول، هي: (إثيوبيا، إريتريا، ساحل العاج، غينيا بيساو، نيجيريا)، ففي إثيوبيا يبدو الإسلام بوضوح دين السهول والشرق والجنوب إسلام بحري، في حين أن الهضبة من الغرب هي القلعة المسيحية القديمة التي تمثل أكبر جزيرة مسيحية في القارة، حيث تقع على خط الاستواء البشري من القارة خط التنافس الأقصى بين الشمال القوقازي والجنوب الزنجي، كما تُعد إثيوبيا البلد الإفريقي الوحيد الذي يتخذ الديانة المسيحية ديانة رسمية في البلاد.

الشكل (٤): الأديان في إفريقيا:



وعلى سبيل المثال: تشاد الشمال مسلم والجنوب زنجي وثني مسيحي متقدم نوعاً ما. وفي نيجيريا

الدين الإسلامي والمسيحية قائماً حول نسبة الانتشار في إفريقيا، مع التنبؤ ببعض التغيرات التي ستطرأ على الديانات في العقود الأربعة القادمة. على الرغم من رحيل الاستعمار، لكنه رحيل شكلي، أضيف إلى ذلك بروز الولايات المتحدة باعتبارها القطب الأوسع المسيطر على العالم، بدأ الحديث عن أطروحات جديدة مثل أمركة العالم التي تفرض مفاهيم السلام بمدلولها الأمريكي.

ولابد من التساؤل الآن: هل تشكل هذه التغيرات في القوى العالمية الجديدة خطراً على خريطة التركيب الديني في إفريقيا؟ وهل ستظل هذه القوى الحديثة تقاوم الإسلام والمسلمين؟ وما أهم التحديات التي تواجه الإسلام والمسلمين في الفترات الحالية؟

رابعاً: العوامل الجغرافية المؤثرة في

التركيب الديني:

يُعدّ توزيع الأديان على مستوى أقاليم القارة ودولها هو المرآة التي تعكس جميع الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية لكل إقليم، حيث تقتضي دراسة توزيع الأديان التعرف على واقع انتشار كل دين بهدف تشخيص وتحليل صورة هذا التوزيع السذي لا يتم وفق أنماط منتظمة متماثلة، فالتباين في التوزيع يتم وفق متغيرات طبيعية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تختلف في أهميتها النسبية من منطقة إلى أخرى، وتتداخل هذه المتغيرات في شكل مترابط ومعقد حتى يبدو توزيع الأديان بكل منطقة وكأنه نتاج لتفاعل مجموعة من النظم الجغرافية والحضارية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية.

١) العوامل الطبيعية:

أ- الموقع والعلاقات المكانية والمساحة:

تقع إفريقيا بين دائرتي عرض ٢١، ٢٧ درجة شمالاً، وإلى الجنوب من خط الاستواء ٥١، ٢٤ درجة، ويتراوح أقصى امتداد لها من الشمال للجنوب حوالي ٨٠٠ كم، ٢، يحدها من الغرب خط طول ١٧، ٢ درجة غرباً، حتى ٥١، ٢ درجة شرقاً.

وتتفرد القارة عن قارات العالم بأن خط الاستواء يكاد ينصفها إلى قسمين متساويين، في نصفها الشمالي مدار السرطان، وفي نصفها الجنوبي مدار الجدي (الشكل ٥)، وقد أدى ذلك إلى توازن دوائر العرض في القارة على جانبي خط الاستواء، ووقوع قسم كبير منها بين المدارين، ونتج عن هذا تدرج الأقاليم الطبيعية في القارة وتمييزها، وقد أدى موقع معظم أقاليم إفريقيا في العروض الاستوائية وشبه الاستوائية والمدارية وشبه المدارية إلى جعلها تتلقى كمية كبيرة من الحرارة ذات الأهمية الكبيرة في الاقتصاد الزراعي وتوليد الطاقة من الأشعة الشمسية، وهذه هي السمة المميزة للموقع الفلكي لمعظم أقاليم القارة الإفريقية.

وترتبط قارة إفريقيا بقارة آسيا ارتباطاً طبيعياً من حيث توزيع الماء واليابس، وخاصة قبل فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، ولا يفصلها عن آسيا سوى البحر الأحمر، الذي يمثل خليجاً داخلياً، حيث لا يزيد عرضه في أوسع مكان له عن (٢٥٠) كم، ويضيق في بعض المناطق حتى يصل إلى (٢٠٠) كم، كما أنها تقترب من قارة آسيا قرب باب المندب، حيث تضيق مساحة الماء كذلك، وليس من شك في أن هذين المعبرين سهلاً منذ أمد بعيد اختلاط العرب بسكان إفريقيا.

أما بالنسبة لقارة أوروبا: فيفصل البحر المتوسط بينهما، ومع ذلك: فإنها تقترب من أوروبا في نطاقين: هما مضيق جبل طارق وصقلية، وقد سهل هذا كذلك من ارتباطها بأوروبا.

تتباين الأقاليم الإفريقية في درجة الأهمية النسبية لموقعها الجغرافي، مما ينعكس على درجة تفاعلها مع العالم الخارجي، وبالتالي مدى تأثر الأقاليم بالمؤثرات الثقافية، والدينية، واللغوية، والاقتصادية الخارجية، وذلك باختلاف (موقع الساحل من دوائر العرض، وشكله، ومظهره، وظهيره)، وبالتالي تختلف

- شمال إفريقيا:

يمكن القول بأن المواقع المتميزة ذات الأهمية الاقتصادية كانت الهدف الأول الذي يبحث عنه البرتغاليون والإسبان في حركة الكشوف الجغرافية التي سبقت الاستعمار، حيث شرع البرتغاليون في البحث عن طرق تجارية بديلة، وقد ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي على شاطئ المحيط الأطلسي على مقربة من القارة الإفريقية من ناحية الشمال على مقربة من الممالك الإسلامية، مما أعطاه أهمية إستراتيجية وتجارية، حيث كانت عاصمتها (لشبونة) مركزاً للتجارة الإفريقية المستوردة إلى أوروبا.

- جنوب إفريقيا:

الذي خضع لسيطرة الأوروبيين ومحاولاتهم المستمرة لمنع زحف الأفارقة من داخل القارة إلى هذا الإقليم، حيث شنت حملات متكررة من حين لآخر لطردهم وإبعادهم، وإجبارهم في بعض الأوقات على الهجرة إلى داخل القارة ووسطها، وقد شجع على ذلك اعتدال الظروف المناخية، وبذلك أصبحت المنطقة بؤرة للتجمع والإشعاع التجاري الأوروبي الأمريكي الإفريقي الآسيوي^(٣).

- وسط إفريقيا:

يعتبر أقل الأقاليم الإفريقية في الأهمية النسبية لموقعه الجغرافي، لذا يُعتبر آخر الأقاليم الإفريقية التي تأثرت بالموثرات الخارجية، الثقافية منها والدينية، فلم يصل إليها العرب المسلمون إلا في مرحلة تالية بعد استقرارهم على السواحل الشرقية، كما لم تطأها قدم الرجل الأوروبي إلا بعد مؤتمر برلين والتهافت الشديد على القارة للسطو على ممتلكاتها؛ ومرجع ذلك هو الظروف الطبيعية القاسية، حيث الأمطار الغزيرة طوال العام والحرارة الشديدة اللذين

درجة جذب السكان والتفاعلات المكانية مع العالم الخارجي^(١)، ويظهر هذا التباين كما يأتي:

- شرق إفريقيا:

هياً الموقع الجغرافي الفريد الفتح العربي الإسلامي للقارة، سواء من ناحية الشمال أو الشرق أو الجنوب، فكانت سبباً معبراً بين جنوب غرب آسيا وإفريقيا للكثير من الهجرات، وفي الوقت ذاته لم يكن البحر الأحمر عقبة أمام الاتصال بين الطرفين، فقد عبره المسلمون في كل جزء من أجزائه، وكانت بلاد اليمن وما يليها من الجنوب والشمال مصدراً لهجرات عديدة، أثرت تأثيراً بالغاً في هضبة الحبشة وأعلى النيل الأزرق وإريتريا وسواحل السودان الشرقية.

ولم تقتصر تلك العلاقات على الجانب الشرقي فقط؛ وإنما تجاوزت إلى الصحاري التي لم تكن عامل فصل يوماً ما، لكن التف حولها العرب المسلمون حيث تم اختراق الصحراء من شرقها عن طريق وادي النيل إلى الإقليم السوداني وما وراءه.

- غرب إفريقيا:

استأثر الساحل الغربي بنشاط الدول الأوروبية في اقتناص الرقيق؛ ولعل مرجع ذلك إلى أن ذلك الساحل كان أول السواحل الإفريقية اكتشافاً وارتداداً لمياهه من قبل الدول الأوروبية، بالإضافة إلى قرب الموقع الجغرافي بينه وبين قارة أوروبا فيسهل الاتصال بالوطن الأم في أوروبا، هذا إلى جانب مواجهة هذا الساحل للأمريكيتين التي صارت الميدان الفسيح لاستقبال الأعداد الغفيرة من الرقيق التي كانت تُسجن من إفريقيا ومن ساحلها الغربي على وجه الخصوص للعمل في مناجم الأمريكيتين ومزارعهما^(٢).

(١) حسن حسين الخولي، إفريقيا بين المكان والسكان، أعمال

مؤتمر إفريقيا وتحديات القرن الحادي والعشرين، ٢٧-

٢٩ مايو ١٩٩٧م، المجلد الثاني، ص (١٥٠-٢٢٠)، معهد

البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة ١٩٩٧م.

(٢) رأفت الشيخ، محمود متولي، إفريقيا في العلاقات الدولية،

مكتبة فلسطين للكتب المصورة، ٢٠١٧م.

(٣) محمد أحمد عقلة، عبد على الخفاف، جغرافية القارات،

الطبعة الأولى، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ١٩٩٨م.

تسبباً في ارتفاع الرطوبة النسبية، مما جعل الإقليم بيئة خصبة لنمو العديد من الأمراض والأوبئة.

كما تطل قارة إفريقيا على محيطين مهمين، هما: الأطلسي من ناحية الغرب، الهندي من ناحية الشرق، الأمر الذي زاد من أهميتها الإستراتيجية (الشكل ٥).

الشكل (٥): موقع إفريقيا من العالم:



وتتمتع حوالي ٣٩ دولة إفريقية بإطلالها على السواحل بما في ذلك الدول الجزرية والحدود المحيطية، وأهم ما يميز الساحل ويجعله مكاناً محبباً لسكنى البشر بوجه عام هو تمتعه بالنظم الإيكولوجية والأراضي الرطبة، والشعاب المرجانية التي تجعله منطقة استقبال وجذب سياحي مهم، وتعتمد مدى جاذبية الساحل على نوعية المناخ ومدى تأثيره في النبات الطبيعي، والنشاط الاقتصادي السائد، وتعدّ هذه قاعدة ذات استثناءات عديدة في قارة إفريقيا، حيث تختلف طبيعة الساحل ومدى قابلية استيطان السكان عليه من إقليم لآخر^(١).

أما السواحل الإفريقية؛ فقد تميزت بالاستقامة، وبالجزر القارية الضيقة، لذا تقل المرافئ والموانئ الطبيعية، وقد ساهم ذلك في عزلة القارة في القرون الماضية^(٢)، فيما عدا السواحل الغربية والشرقية

وبعض المواضع الشمالية والجنوبية التي تشهد تعرج في خط الساحل، لذا عملت قوى الاستعمار على تهيئة وتحسين استغلال تلك السواحل، والتي كانت هدفاً لأولى الحركات الكشفية.

كما هدف الاستعمار إلى السيطرة على الطرق التي تربط داخل القارة بالعالم الخارجي، فمنها نفذت قوى الاستعمار الأوروبي في أواخر القرن ١٥ ومطلع ١٦، ولما كانت القارة الإفريقية تمثل الحاجز الذي يقف في وجه الطرق البحرية التي تصل بين الأطراف الغربية لقارة آسيا والأطراف الشرقية لقارة أوروبا، فقد تم التركيز في عصر الكشوف الجغرافية على البحث عن الطرق الساحلية في الدرجة الأولى، ومن ثم الطرق الداخلية التي تربط بين السواحل وداخل القارة، ولقد أدى ذلك كله إلى بروز أهمية الموقع الذي احتلته إفريقيا من حيث إشرافها على طرق المواصلات التي تربط بين الشرق والغرب. كما ازدادت، فيما بعد، أهمية الموقع الجغرافي في مجال العلاقات الدولية.

ب- المظاهر التضاريسية:

أدى تباين وتوسع السطح، ما بين السهول والهضاب والجبال، دوراً مهماً في تباين الانتشار المكاني للعناصر الخارجية التي أثرت في التركيب الديني للقارة الإفريقية، والذي يتوقف على مدى دراية كل عنصر وقابليته وقدرته على التعايش في ظروف تضاريسية معينة، فالعنصر العربي الإسلامي عرف الساحل الذي ارتبط بالطرق التجارية الساحلية، كما عرف الدروب الصحراوية وأتقن السير بها لارتباطها أيضاً بطرق التجارة البرية، التي اتخذت طريقاً برياً ساحلياً في بدايته، ثم انقسمت إلى طرق ودروب صحراوية تجوب الصحراء الكبرى حتى تصل إلى غرب القارة الإفريقية.

(١) ماجدة إبراهيم عامر، ومنى علي عبد الرحمن شافعي، توزيع السكان في إفريقيا والعوامل المؤثرة فيه، إفريقيا قارة المستقبل الواعد، تحرير السعيد البدوي، معهد الدراسات والبحوث الإفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠١٥م.

(٢) United Nations, Economic Commission for Africa, Sustainable Development Report on Africa, 2005

ج- الظروف المناخية:

يكاد خط الاستواء أن ينصف القارة لنصفين، القسم الشمالي ويمتد لمسافة 37^0 عرضية، والقسم الجنوبي يمتد لمسافة 35^0 دائرة عرضية، وبالتالي نجد أن المناخ السائد في الغالبية العظمى من المساحة هو المناخ الاستوائي، ولا تظهر الظروف المعتدلة أو المائلة إلى البرودة إلا في مساحات محدودة ومحلية في المستويات المرتفعة، إذ يمتد ثلث مساحة القارة بين المدارين، وكان لهذا أيضاً أثره في تناظر الأقاليم المناخية والنباتية في شمالي القارة وجنوبها إلى حد كبير^(٢).

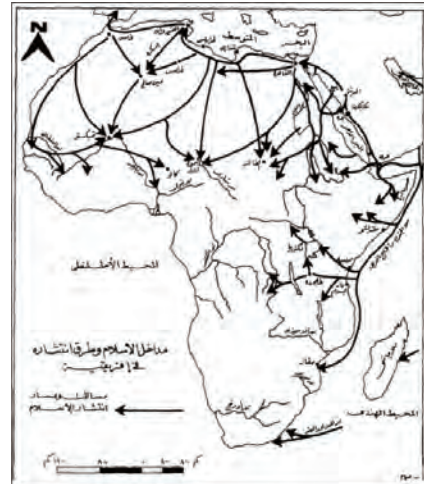
صار ساحل الغرب الإفريقي مقبرة الرجل البيض، الذي فضل الاستقرار في الجزر وبعض الجيوب على الساحل بعيداً عن الداخل حيث ارتفاع درجة الحرارة مع الرطوبة العالية^(٣).

ولعل من أهم المؤثرات المناخية هي منظومة الرياح والتيارات البحرية للقارة ودول جوارها، والتي لها أثر كبير حيث فرضت نفسها كي تحدد أوقات وطبيعة العلاقات التجارية بين القارة الإفريقية وشبه الجزيرة العربية، فالرياح الموسمية الشمالية الشرقية (شتوية)، التي تهب في الفترة من شهر يناير حتى آخر مارس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، تدفع هذه الرياح معها المراكب الشراعية من شواطئ شبه الجزيرة العربية والخليج العربي إلى سواحل إفريقيا الشرقية، وفي العودة تستفيد هذه السفن من هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية (صيفية)، التي تهب في الفترة من شهر أبريل وحتى أواخر شهر سبتمبر.

ويوضح (الشكل ٦) محاور دخول الإسلام لإفريقيا وطرق التجارة الإسلامية الرئيسية المبكرة في الصحراء الكبرى، والتي وصلت لغرب إفريقيا في عصور مبكرة، وبذلك يمكن القول إن الإسلام استطاع أن يصل إلى أماكن لم يستطع أن يصل لها المستعمر خاصة الصحراء الكبرى الشمالية؛ نظراً لتشابه الظروف الصحراوية في الصحراء الكبرى مع ظروف شبه الجزيرة العربية، كانت البيئة الصحراوية وفقرها في شبه الجزيرة العربية عامل طرد نحو البحر، فكان التوجه البحري بسبب طول السواحل واحتوائها على عدد كبير من الموانئ الصالحة للملاحة^(١)، على عكس المستعمر الذي هدف في بداية الأمر إلى السيطرة على طرق التجارة الساحلية المتحكممة في التجارة بين الشرق والغرب في مرحلة الكشف الجغرافية البرتغالية، ثم التوغل داخل القارة في مرحلة تالية للسيطرة على مواردها الطبيعية والتبشير بالمسيحية.

الشكل (٦): محاور دخول الإسلام لإفريقيا وطرق التجارة الإسلامية

الرئيسية المبكرة في الصحراء الكبرى:



المصدر: (سليمان خاطر، ١٩٨٤، ص ٥٤).

(٢) محمد عبد الفني سعودي، إفريقية دراسة في شخصية القارة وشخصية الإقليم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٣) حسن حسين الخولي، ١٩٩٧م، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

(١) صالح محروس محمد، الوجود العربي في شرق إفريقيا، وكالة أنباء الأهرام الدولية/ ٤ آب ٢٠١٥م.



٢) العوامل البشرية:

تؤدي العوامل البشرية دوراً كبيراً في رسم خريطة التركيب الديني في إفريقيا، فتركز الإسلام في صورة أغلبية مسلمة في الشمال وظهوره بنسب أقل في إفريقيا جنوب الصحراء لصالح المسيحية التي يزداد تركيزها في إفريقيا جنوب الصحراء ويقل انتشارها في الشمال، تظهر هذه الصورة محكومة بمجموعة من العوامل البشرية.

كما أن تشتت الأقليات التي تتبع ديناً معيناً أو معتقداً معيناً، حيث اللجوء والهجرات القسرية لأعداد كبيرة من هؤلاء إلى أقاليم غير أقاليم النشأة، يقف وراء هذه الصورة العديد من العوامل البشرية التي يمكن إيجازها فيما يلي:

- التركيب الإثني والعرقى واللغوي:

أفرزت البيئة الإفريقية وجود قبائل ذات تأثير ونفوذ قوي داخل دولها، بل تعداها إلى الدول المجاورة لها التي لها فيها امتداد؛ حيث تتميز هذه القبائل بالقوة البشرية والاقتصادية والأمنية نتيجة لهيمنة القبيلة على الواقع الإفريقي بشكل عام.

تتميز المجتمعات الإفريقية بتعدد أشكال وأنماط التعددية، سواء كانت تعددية إثنية أو لغوية أو دينية، فعلى صعيد التعددية اللغوية توجد في إفريقيا أكثر من ألفي لغة ولهجة، إلا أن هذا العدد يمكن تقليصه إلى نحو خمسين لغة رئيسية إذا ما تم تجميع اللغات واللهجات المتشابهة والاقتصار على اللغات الرئيسية. وتنتمي هذه اللغات في مجملها إلى مجموعتين رئيسيتين، هما: مجموعة اللغات الأفروآسيوية، ومجموعة لغات النيجر الكونغو، وكلتاهما تتكون من مجموعات لغوية فرعية.

كما تحتضن إفريقيا كمّاً هائلاً من اللغات المستعملة في أرجاء القارة، سواء كانت لغات أصلية كالعربية، والهوسا، والسواحلية، أو لغات وافدة كالإنجليزية، والفرنسية، وهذا التنوع في اللغات يلزمه تنوع في الثقافات، ولعل ظاهرة تعدد اللغات وتنوعها فريدة إلى حد ما في إفريقيا مقارنةً بباقي قارات العالم سوى آسيا. وقد ساعدت البيئة الطبيعية والحالة الاجتماعية على تعدد اللغات في القارة، حيث أدت البيئات المكشوفة، مثل بيئة السافانا وإقليم الصحاري، إلى التجانس في اللغة والحالة الاجتماعية والمعتقدات الدينية. أما الغلبة الاستوائية فأدت إلى تنافر وتباين اللغات والمعتقدات، فأصبح لكل جماعة لغتها الخاصة، وبالتالي عبادتها الخاصة نتيجة العزلة الطويلة، وهذه الحالة الاجتماعية والتنافر في المعتقدات

ونشره فيها، فانتقل بذلك من شمالها إلى غربها، كما ساعدهم في ذلك الحدود المفتوحة بين أقاليم المنطقة ورحلات الحج والتجارة إلى تلك المناطق، وهو ما سهل هجرة بعض المسلمين الشماليين إلى المناطق الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية والإقامة فيها، فحملوا معهم نور الإسلام وثقافته ونشروه هناك^(٢).

كانت التجارة عبر الصحراء تعمل على توفير التكامل بين اقتصاد المنطقتين الإفريقية والعربية، حيث تجلب القوافل الثياب والأواني والأدوات الصناعية وقطع الملح من الشمال إلى الجنوب، ثم تعود محملة ببضاعة المناطق الإفريقية كالذهب والعاج والحبوب والرقيق وغيرها من السلع الغالية والثرينة جداً.

وشكل التجار طبقة قريبة من البلاط الملكي أو النظام الحاكم، فتمتعوا بحرية الإقامة، واتخذهم الملوك والسلاطين مستشارين، ما أدى إلى انتشار الإسلام سريعاً وإلى إسلام الملوك وحاشيتهم، فمع انتشار الإسلام زادت التجارة وأصبحت طبقة التجار تتمتع بمزايا كثيرة في المجتمع الإفريقي الغربي، وعليه يمكننا الجزم بأن أغلب التجار مثلوا دور رسل الإسلام في إفريقيا^(٣).

٤) التغيرات الديموجرافية:

أ- الخصوبة السكانية:

تخطى عدد سكان إفريقيا حاجز المليار نسمة بحلول عام ٢٠٢٠م (٤، ١٣٢٨) مليون

(٢) شريفة طلاع، دور التجارة وقوافل الحج في انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، دورية كان التاريخية: المستقبل الرقمي للدراسات التاريخية، العدد ٤٢، صفحات (١٢٥-١٣٣)، ٢٠١٩م.

(٣) عباس عطية القريشي، دور التجار والتجارة في نشر الإسلام داخل القارة الإفريقية، مركز الدراسات الإفريقية <https://africansc.iq/posts/details/234>، ٢٠٢٢/١١/١٤

تؤدي إلى عدم الاختلاط بين الأقاليم وبالتالي إلى عدم توحيد للغات؛ ولهذا فإن مشكلة الوحدة اللغوية في إفريقيا الاستوائية ما زالت شديدة التعقيد.

وأكثر اللغات شيوعاً في إفريقيا هي: (اللغة العربية في شمال إفريقيا، واللغة السواحلية والأمهرية في شرق إفريقيا، ولغة الهوسا واليوربا والماندي في غرب إفريقيا، بالإضافة إلى اللغات المتقدمة مثل الإنجليزية والفرنسية والبرتغالية والأفريكانية وهي لغة هولندية معدلة في جنوب إفريقيا، ولغة الإندونيسيين في مدغشقر)^(١).

وقد أوجدت الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا نتائج بعيدة تمثلت في انتشار اللغة العربية والإسلام، وأسفر التغلغل والتأثير اللاحق للعرب والإسلام في إفريقيا الشرقية والغربية وفي الصحراء الكبرى عن طريق التجار العرب عن نتائج دينية وثقافية ولغوية، تمثلت في اللغة السواحلية، وعن نتائج سلالية عميقة، فقد تشكلت في أقاليم كثيرة أنماط سلالية متنوعة ومختلفة.

٣) العوامل الاقتصادية (التجارة):

لم تشكل الصحراء الكبرى عائقاً للاتصال الحضاري بين البلاد العربية والأقاليم الإفريقية الواقعة وراءها، فكان للتجارة دورٌ كبير في ربط الأقاليم ببعضها، وتجلّى ذلك في ربط الشمال الإفريقي بجنوبه، حيث نشطت قوافل التجارة الصحراوية للتجار المسلمين مع أقاليم إفريقيا جنوب الصحراء- انظر (الشكل ٦)، فعمد هؤلاء التجار إلى إدخال دين الإسلام غرب إفريقيا

(١) عبد الزهرة شلش العنابي، الوزن الجيوبوليتيكي للإسلام في إفريقيا، مجلة الأستاذ، العدد ٢٠٥، المجلد الثاني، ص (٢٥-٩٢)، العراق ٢٠١٣م.

نسمة، بزيادة قدرها ١,١ مليار نسمة عما كان عليه عام ١٩٣٠م (١٦٤ مليون نسمة)، ترتب على ذلك زيادة الوزن النسبي لسكان إفريقيا من جملة سكان العالم، والذي ارتفع من حوالي ٨,٧٪ عام ١٩٣٠م إلى ١٧,٢٪ عام ٢٠٢٠م، فهي ثاني قارات العالم بعد قارة آسيا^(١).

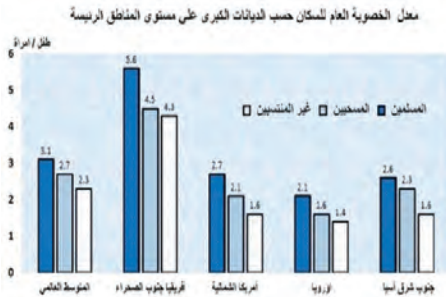
يتباين السكان من حيث النمو من وقت لآخر، ومن ديانة لأخرى في قارة إفريقيا؛ وذلك بفعل تباين معدلات المواليد والوفيات والهجرة بنوعها (داخلية، وخارجية):

- يتمتع المسلمون بأعلى معدلات الخصوبة بمتوسط عالمي بلغ ٣,١ طفل/امرأة، وهو متوسط منخفض مقارنةً بالمتوسط العام لجملة السكان البالغ ٢,٣ طفل/امرأة عام ٢٠٢٠م، وهو الحد الأدنى المطلوب عادةً للحفاظ على استقرار السكان^(٢).

تفوق المسلمين على الديانات الأخرى بما يفوق المتوسط العالمي للخصوبة؛ ويرجع ذلك إلى ارتفاع معدلات المواليد في إفريقيا جنوب الصحراء بوجه عام نتيجة ارتفاع معدلات وفيات الأطفال، وانخفاض نسبة الحصول على وسائل تنظيم الأسرة، وتدني مستويات المعيشة، وارتفاع معدلات الأمية لدى السيدات، وارتفاع معدلات الفقر بوجه عام^(٣). بينما تتقارب المعدلات في باقي المناطق؛ مع تفوق معدل الخصوبة للأقليات المسلمة على الديانات الأخرى كما هو مبين بالشكل (٨).

الشكل (٨):

معدل الخصوبة العام للسكان حسب الديانات على مستوى المناطق والقارات الرئيسية لمنتسبي الديانات الرئيسية عام ٢٠٢٠م:



المصدر: اعتماداً على بيانات:

Pew Research Center, April 2, 2015, «The - Future of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050».

ب- التركيب العمري للأقليات المسلمة:

يُعتبر التركيب العمري لسكان من أهم عوامل نمو السكان المنتسبين للديانات المختلفة. يُعدّ المسلمون هم الأصغر سناً، وتتباين فئات السن على مستوى منتسبي الديانات المختلفة تبعاً لتباين العوامل الديموغرافية (المواليد،

بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- يأتي المسيحيون في الترتيب الثاني، بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- بينما بلغ معدل غير المنتسبين حوالي ٢,٣ طفل/امرأة.

هذا، وتتباين معدلات الخصوبة على مستوى الأقاليم الجغرافية، وذلك تبعاً لمجموعة من الأسباب (المعايير الثقافية، مستوى التنمية الاقتصادية، وأنظمة التعليم، والمستوى التعليمي للإناث، والسياسات الحكومية التي تشجع على تنظيم الأسرة أو العكس، ومعدل وفيات الأطفال، ومستوى الدخل، والحالة الاجتماعية)، وبناءً عليه سجلت إفريقيا جنوب الصحراء أعلى معدلات الخصوبة لجميع الديانات؛ مع

معدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- يأتي المسيحيون في الترتيب الثاني، بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- بينما بلغ معدل غير المنتسبين حوالي ٢,٣ طفل/امرأة.

هذا، وتتباين معدلات الخصوبة على مستوى الأقاليم الجغرافية، وذلك تبعاً لمجموعة من الأسباب (المعايير الثقافية، مستوى التنمية الاقتصادية، وأنظمة التعليم، والمستوى التعليمي للإناث، والسياسات الحكومية التي تشجع على تنظيم الأسرة أو العكس، ومعدل وفيات الأطفال، ومستوى الدخل، والحالة الاجتماعية)، وبناءً عليه سجلت إفريقيا جنوب الصحراء أعلى معدلات الخصوبة لجميع الديانات؛ مع

معدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- يأتي المسيحيون في الترتيب الثاني، بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- بينما بلغ معدل غير المنتسبين حوالي ٢,٣ طفل/امرأة.

هذا، وتتباين معدلات الخصوبة على مستوى الأقاليم الجغرافية، وذلك تبعاً لمجموعة من الأسباب (المعايير الثقافية، مستوى التنمية الاقتصادية، وأنظمة التعليم، والمستوى التعليمي للإناث، والسياسات الحكومية التي تشجع على تنظيم الأسرة أو العكس، ومعدل وفيات الأطفال، ومستوى الدخل، والحالة الاجتماعية)، وبناءً عليه سجلت إفريقيا جنوب الصحراء أعلى معدلات الخصوبة لجميع الديانات؛ مع

معدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- يأتي المسيحيون في الترتيب الثاني، بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- بينما بلغ معدل غير المنتسبين حوالي ٢,٣ طفل/امرأة.

هذا، وتتباين معدلات الخصوبة على مستوى الأقاليم الجغرافية، وذلك تبعاً لمجموعة من الأسباب (المعايير الثقافية، مستوى التنمية الاقتصادية، وأنظمة التعليم، والمستوى التعليمي للإناث، والسياسات الحكومية التي تشجع على تنظيم الأسرة أو العكس، ومعدل وفيات الأطفال، ومستوى الدخل، والحالة الاجتماعية)، وبناءً عليه سجلت إفريقيا جنوب الصحراء أعلى معدلات الخصوبة لجميع الديانات؛ مع

معدل ٢,٧ طفل/امرأة.

- يأتي المسيحيون في الترتيب الثاني، بمعدل ٢,٧ طفل/امرأة.

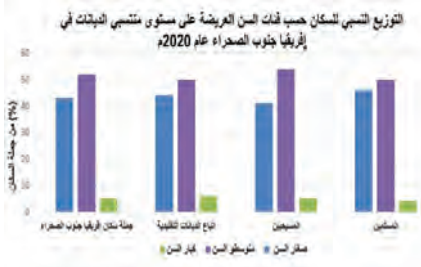
- بينما بلغ معدل غير المنتسبين حوالي ٢,٣ طفل/امرأة.

هذا، وتتباين معدلات الخصوبة على مستوى الأقاليم الجغرافية، وذلك تبعاً لمجموعة من الأسباب (المعايير الثقافية، مستوى التنمية الاقتصادية، وأنظمة التعليم، والمستوى التعليمي للإناث، والسياسات الحكومية التي تشجع على تنظيم الأسرة أو العكس، ومعدل وفيات الأطفال، ومستوى الدخل، والحالة الاجتماعية)، وبناءً عليه سجلت إفريقيا جنوب الصحراء أعلى معدلات الخصوبة لجميع الديانات؛ مع

(١) منى علي عبد الرحمن شافعي، التحول الديموغرافي في إفريقيا، مجلة قراءات إفريقية، العدد ٦١، مركز أبحاث جنوب الصحراء، لندن ٢٠٢٤م، ص (٦٠-٨٠).

(٢) UN, Muslim Population By Country, 2020, USA, p.4.

الشكل (٩): التوزيع النسبي للسكان حسب الديانة وفئات السن الرئيسية في إفريقيا جنوب الصحراء عام ٢٠٢٠م:



المصدر: عمل الباحثة اعتماداً على:

Pew Research Center, April 2, 2020, «The Future of World Religions: Population Growth Projections», 2010-2050

× فئة كبار السن (٦٥ سنة فأكثر):

هذه الفئة من السكان غير منتجين وغير قادرين على الإنجاب، كما أنهم قليلو الحركة، لذا فهي فئة غالباً ما تكون مُعالة، ونسبة هذه الفئة بلغت ٥٪ كمتوسط عام لجملة سكان إفريقيا جنوب الصحراء والمسيحيين، مقابل انخفاضها في صفوف المسلمين لتبلغ ٤٪ فقط، مقابل ارتفاعها إلى ٦٪ لمنتسبي الديانات التقليدية، مما يعني أن معتقي الديانات المحلية يرتفعون في فئة كبار السن.

مما سبق؛ يمكن القول: بأن جميع منتسبي الديانات يشهدون تأخراً في التحول الديموجرافي؛ ويرجع ذلك لارتفاع معدلات النمو السكاني والخصوبة بوجه عام، مما كان له أكبر الأثر في الخصائص العمرية للسكان، حيث ترتفع نسب صغار السن ومتوسطي السن بين صفوف السكان، مما يعكس على انخفاض العمر الوسيط للسكان إلى ١٧ سنة للمسلمين، ١٨ لمنتسبي الديانات التقليدية، و١٩ سنة للمسيحيين.

ج- التحول أو التبديل الديني:

يُقصد به التحول من ديانة إلى ديانة أخرى، حيث توقعت الدراسة التي أجراها مركز بيو أن هناك أعداداً كبيرة من سكان العالم قد دخلوا

والوفيات، الهجرة). حيث يمكن تقسيم الفئات العمرية إلى ثلاث فئات رئيسية، ويمكن التعرف في التوزيع الجغرافي لكل فئة عمرية على حده، كما هو وراود بالشكل (٩):

× فئة صغار السن (أقل من ١٥ سنة):

تمثل هذه الفئة قاعدة الهرم السكاني، وتتأثر كثيراً بعاملَي المواليد والوفيات، وكذلك بمدى توافر الخدمات الاجتماعية، ولاسيما الصحية والتعليمية والسكن المناسب والتغذية الصحية السليمة، وتوصف هذه الفئات بأنها مستهلكة جداً وغير منتجة.

هذا، وتخفض النسبة التي تساهم بها فئة صغار السن في البناء السكاني لجملة إفريقيا جنوب الصحراء (حيث بلغت ٤٣٪ مقابل ٤٦٪ للمسلمين)؛ ويرجع ذلك لارتفاع معدلات الخصوبة في صفوف المسلمين بإفريقيا مقارنةً بـ ٤٣٪ لصغار السن من جملة سكانها، يليها في الترتيب أتباع الديانات التقليدية المحلية بنسبة ٤٤٪ من جملة السكان، وأخيراً سجلت المسيحية نسبة ٤١٪ من جملة سكانها لصغار السن.

× فئة البالغين (١٥ لأقل من ٦٥ سنة):

هي الفئة المنتجة التي تساهم في نمو السكان، وهي الأكثر قدرة على الحركة والهجرة، وقد بلغت النسبة حوالي ٥٢٪ من جملة سكان إفريقيا جنوب الصحراء مقابل ٥٤٪ للسكان المسيحيين، ٥٠٪ للمسلمين وأتباع الديانات التقليدية، مع وجود تباين على مستوى الدول، هذا وتؤدي الهجرة دوراً كبيراً وراء ارتفاع نسبة السكان ضمن هذه الفئة، حيث ترتفع النسبة بالدول المستقبلية للمهاجرين.

- الإحصائيات والتحول:

وتقت الدراسة بالأرقام كيف تغيرت نسب أتباع الديانات الكبرى في إفريقيا (الإسلام، المسيحية، والديانات التقليدية) بين فترات ما قبل الاستعمار وبعده.

- استمرار الآثار:

أوضحت الدراسة أن التأثيرات الاستعمارية لا تزال تلقي بظلالها على واقع التعايش الديني والعلاقات بين الطوائف، وأثرت في بعض الحالات على ظهور النزاعات أو حالات التجانس الجديدة.

كما خلصت هذه الدراسة إلى أن الاستعمار الأوروبي شكّل مرحلة فارقة في تاريخ إفريقيا الديني، إذ أحدث تحولاً جوهرياً في خريطة الأديان والهوية الثقافية بالمجتمعات الإفريقية، فقد أدت السياسات الاستعمارية إلى تراجع الديانات التقليدية وانتشار المسيحية في مناطق واسعة، إلى جانب محاولة تقليص دور الإسلام في مناطق نفوذه التاريخي.

وعلى الرغم من نجاح الاستعمار في فرض تغييرات واسعة عبر أدوات التعليم والإدارة، فإن الهوية الدينية التقليدية ظلت مقاومة في العديد من المناطق، بل وشهدت في فترات لاحقة نوعاً من العودة أو المزوجة مع مظاهر الحداثة.

وتشير نتائج الدراسة إلى أهمية فهم جذور التحولات الدينية المعاصرة في إفريقيا من منظور سياق الاستعمار، فالآثار ممتدة ومتداخلة مع ظواهر اجتماعية وسياسية حتى اليوم.

توصيات الدراسة:

توصي الدراسة بضرورة تعميق البحث في أثر الاستعمار في الهوية والثقافة الدينية، كما توصي بضرورة تعزيز التفاهم والتعايش بين الطوائف الدينية المختلفة، لترسيخ الاستقرار والتنمية في القارة الإفريقية ■

للدن الإسلامي، سواء من التحول من المسيحية أو الديانات المحلية، مع وجود تباين واضح على مستوى الأقاليم الجغرافية كما يلي^(١):

- من المتوقع أن يؤدي التحول الديني إلى تغيير المشهد الديني في إفريقيا جنوب الصحراء في السنوات المقبلة، ومن المتوقع أن ينضم ٢,٩ مليون نسمة للإسلام خلال الفترة (٢٠١٠/٢٠٥٠م) في إفريقيا جنوب الصحراء، أغلبهم قد تحولوا من: المسيحية، الديانات التقليدية.

- مقابل ٢ ملايين نسمة يتوقع خروجهم من الديانة المسيحية خلال الفترة نفسها.

خاتمة:

خُصت الدراسة إلى أن الاستعمار الأوروبي أحدث تحولات عميقة في البنية الدينية والثقافية للمجتمعات الإفريقية، من أبرزها:

- التغيير في الخرائط الدينية:

بينت الدراسة كيف غير الاستعمار من التوزيع الديني في كثير من الدول الإفريقية، من خلال دعم انتشار المسيحية على حساب الديانات التقليدية بشكل رئيسي، والإسلام في بعض المناطق وإن كان بشكل محدود.

- أدوات التأثير:

استخدم الاستعمار التعليم، والإدارة، والمؤسسات الصحية، والسيطرة الاقتصادية، كوسائل لنشر الديانة المسيحية وإضعاف الديانات الأصلية.

- المقاومة المحلية:

أشارت الدراسة إلى مقاومة السكان المحليين لمحاولات فرض الديانات الجديدة، وكيف نجحت بعض الهويات الدينية الإسلامية في الحفاظ على وجودها بدرجات متفاوتة.

(١) Pew Research Center, April, 2, 2015, "The Future of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050, p.43